أن يعوِّض فيه حرمان النفس كلَّ لذّة لأنها جانية. وبينما كان أحد «الإخوة» يتلو نصّاً من النصوص المقدَّسة كان المريدون الجاثمون على مقاعد مرتفعة، والمضطرّون من جرّاء ذلك إلى الانحناء بشكل عنق البجعة فوق الموائد، يتناولون الأطعمة بالإبهام والسبّابة ويغمسونها في قِدْر ماء وهم يتمتمون عند كل لقمة «ما رامْ بارِخْ!»، «بارِكْ أيها الربّ!».

وعلى هذا النحو مرّ «مانكوس» بطاسته في جوقة من التمتمات، ومَنَّ عليه كلّ من «الإخوة» بنواة من غير أن ينبس بكلمة، ولكن بسِحْنة حيوان مجترّ مُهان ومُحْتَقِر. وإذ أدرك أحد هؤلاء الصالحين أن النواة التي ألقاها كانت هزيلة جدّاً فقد سارع إلى إضافة أخرى فرِحاً بأنه لم يُخِلّ بدوره في تطبيق العقاب.

«ماني» وحده تميّز من الآخرين. ففي لحظة إيداعه نصيبه أدخل أصابعه بجرأة في الطاسة وانتشل منها حفنة كبيرة من النَّوى فدسّها خِفيةً في جيبه زامّاً شفتيه أمارةً على التعاطف والتعزية. وإذ حرص «مالكوس» من ناحيته كل الحرص على عدم إبداء عرفانه بالجميل فقد غادر إلى مكانه وشرع في تناول وجبته غير اللائقة. غير أن مجرّد معرفته بأن له صديقاً بين هذه الجماعة كان من شأنه أن نَقَع غُلّته. وخُيِّل إليه أن النّوى قد احتفظت بمذاق سُكّري متخلِّف وبقَضْمَةٍ ليِّنة. وإذ لاحظ بعض «الإخوة» سِحْنته الهادئة النامّة عن قليل من الندم، بل المفعمة أحياناً بحبُور وقِح، فقد حسبوا أن الشيطان يسكنه.

كان ما يعتمل في نفس «مالكوس» منذ ذلك اليوم تجاه المُحسِن الفتيّ إليه أكثر من عرفان؛ لقد كان تفانياً حقيقياً. فقد عاهد نفسه على أن يتبعه إلى كل مكان، وأن يحميه من الجميع، وأن يتلقّى عنه آلاف الجلْدات وما لا يُحصى من أيام الصوم. وكان مستعدّاً، لقاء حفنة مخطوفة من نوى التمر، ومن أجل زمّة متواطئة بشكل غامض من الشفتين، لمقاسمة «ماني» أغلى ما كان يملكه في الدنيا.

وغداة الحادث بالذات، في اللحظة التي كانت الجماعة تجتمع فيها لصلاة